الفنون التشكيلية في شهر

تأملات .. في معرض الرواد

بقلم جليل كمال الدين

ان معرض الرواد هذا هو اول معرض تقيمه جمعية الفنانين العراقيين لجماعاتها ، بصوة مستقلة ، في معهد الفنون الجميلة . وسيتبعه في ١٨ نيسان معرض جماعة بغداد للفن الحديث ، وبقية المعارض ، حتى تكتمل ، كلها ، في المعرض السنوي العام ، في سنته الثانية .

يقول الرواد : « في اواخر سنة ١٩٥٠ ، وفي دار صغيرة على شاطيء دجلة اقام جماعة من الفنانين اول معرض تحت اسم جديد هو «الرواد» ، ولم يدر بخلد اولئك الذين ساهموا فيه حينذاك بأن معرضهم هذا سيكون بداية لمرحلة جديدة للفن العراقي ، مرحلة مشبعة بالحركة والنشاط والابداع .. لقد كانوا مجرد جماعة من الاصدقاء جمعتهم ميولهم المشتركة في الحياة ورغبتهم القوية في تطوير الفن العراقي اوانمائه .. لقد انصرمت ثماني سنوات على اقامة ذلك المعرض تطورت خلالها مفاهيم الناس والفنانين على السواء . واذا جاز لنا ان ننسب (للرواد) بعض التقاليد الفنية فانه من الواضح جدا انهم عكسوا في انتاجهم الفني الذي قدموه خلال هذه الفترة انعطافا قويا للتعبير عن محيطهم ، وارتباطا وثيقا بالتربة التي ترعرعوا فيها ، وادراكا عميقا للعصر المضطرب الذي يعيشون فيه .. ان ذلك المعرض الصغير الذي اقيم في امسية مطيرة على شاطيء دجلة سيبقى دائما النقطة التي انطلق منها الفن العراقي المعاصر في بعثه الجديد » .

فماذا استفدنا من هذا التقديم الرشيق « للرواد » ؟ وماذا سنهضم من حقائق ومعطيات فيه ؟

★

ان جماعة « الرواد » قد حققوا شيئا ، وقدموا ، اخر الامر ، شيئا نستطيع الفخر به والاشارة اليه باعتزاز .

ولكن تفاؤلنا هذا ، ذاته ، قد لا يستديم ، طيلة الدراسة .

قبل كل شيء نحتاج القول ان هذا المعرض جاد .. فليس فيه هزل ولا اضاعة وقت بالقدر الذي يجعلنا نقرف ونشمئز ، كما لحظنا ، بألم كبير في اعمال فنانين آخرين ، في معارض اخرى ، او في اعمال بعض اعضاء « الرواد » في معارض سابقة . ان الجدية في عمل فكري عربي معاصر ، كسب رائع لا حد لروعته . كما ان الهزل ، في وقت كوقتنا ، وفي عصر كعصرنا هذا ، هو انتهازية وخيانة فكرية وفنية فظيعة . والحق ان « الرواد » كانوا ، منذ ان بزغ نورهم ، على قدر من الجدية لا بأس به ، وان ضاع بعضهم ، في بعض المعارض . وللايضاح ، اقصد بالجدية ابعادها كلا . فمن ناحية الموضوع ، كان الموضوع « الروادي » — انصح التعبير جادا .. ومن ناحية مضمون ذلك الموضوع ومحتواه ، كان هو الاخر جادا .. في بعض حالاته — ويتراوح بين الجدية والتعجل والتفاهة في حالات اخر .. واخيرا التكنيك ، كان هو الاخر محترما وجادا .. وان كان ثمة فيه ثغرات وكوى ، لا بد من ردمها في اعمال « الرواد » المستقبلة ، كما تنبئنا قابلياتهم الفنية معروضة في معرضهم السنوي .

كان الموضوع « الروادي » في مائة لوحة ، موضوعا واقعيا ، شعبيا .. اقانيمه الانسان الكادح ، الطيب ، العامل ، الشريف .. وكساؤه الحياة الدفيقة بالسخاء المنتج . ولست اريد القول ، بذلك ، ان كل هذه المائة لوحة كانت كما اسلفت . ولكني اقول ان ثمة رصيدا محترما لهذا الموضوع الواقعي ، الانسان . فمن « حاملات الروبة » و « بائعة الحليب » و « ملايات » و « حديث » و « حريق » لاسماعيل الشيخلي ، الى « سوق الفواكه » ، و « جاي العصر » و « شارع في بغداد » و « بائعات اللبن» و «قرويات» لسوزان الشيخلي الى «في الانتظار» و «في السوق» و «الارض الطيبة»، و «السماك الفقير»، و «ليلة القدر»، و «مشهدقروي»، و « الامل » ، و « اهل الصحراء » ، لفائق حسن ، الى « من الريف » لخالد القصاب، الى « مجزرة في الجزائر » — زيتية ، وتخطيط ، — و« ملايات » ، و « عائلة عربية (١) و (٢) ، و « ثلاثة اشخاص » ، و « بناؤون » و « منظر ريفي » ، و « عمال » لمحمد صبري ، الى « المضيف في الطنوبة » (١) و (٢) ، و « بائعة البيض » و « بائعة الدجاج » ، و « عمال انابيب المجاري » (١) و (٢) ، و « السماكون » ، و « مقهى الجانه » لزيد صالح ، الى « النجف » لقحطان حسن فهمي .

لا اظننا نحتاج ان نقول ان وثبتنا العربية الحديثة غنية بمعطياتها لدرجة انها توجب علينا نحن ، الفنانين العرب ، ان نلتزمها كل الالتزام ، وان نتطور بها ، وان ننمو بها نسغا وحياة وواقعا ومستقبلا . وليس ثمة اروع مما في سمفونيتنا العربية الهدارة من جزائرنا الانسانية المجاهدة. فان كان بعد كل التقتيل والتذبيح والارهاب الوحشي الاسود الذي يقوم به سفاكو حرية فرنسا والجزائر ، وجلادو استقلال فرنسا والجزائر ، ان كان ثمة تشكيك او شك في انسانية عروبتنا الجزائرية ، وفي ايمانها بالحياة ، وفي حقها في الوجود ، فمعنى ذلك ان عصرنا يرجع ولا يمضي ، ولما كان التطور مطلقا ، لا سبيل الى وقفه ، كان الفن ، بطبيعة الحال ، في ركاب هذا التطور ، ومن اسلحته ومن جذوعه التي يعتمد عليها ، كفاعلية حياتية مطواعة ، خلاقة ، موارة بالبناء والانشاء ، والعدوى ، والتعقيل ، والانسنة الشفيفة .

ومعنى ذلك ان فننا العربي الحديث في خدمة السمفونية الجزائرية العربية ، كسب نبيل جدا ، قدر ما هو واجب لا مناص من القيام به . وان كان فنانونا ، هنا ، قد تكاسلوا في بحر عشرة اشهر عن تقديم شيء ما للجزائر ، وبوحيها ، وعلى هدى وثبتها العملاقة فان ذلك يرجع ، في عميق التمحيص ، الى عيش هؤلاء ، للاسف على هامشنا ، على هامش وثبتنا ، على هامش حياتنا وجودنا . وان كان « للرواد » ان يفخروا بشيء ، في مقابل ذلك ، فليفتخروا « بمجزرة في الجزائر » — لوحة الفنان الواقعي التعبيري الجاد .. محمود صبري.

وهذا من ناحية الموضوع والمضمون . اما من ناحية التكنيك فيستطيع الرواد ان يرفعوا رؤوسهم عاليا بوجود الفنان فائق حسن بينهم ، والذي هو ، بحد ذاته ، اكتمالة تكنيكية رائعة ، وانطلاقة فنية جسورة في واقعنا الفني المعاصر . وهو في ذلك يستند الى الخبرة الطويلة ، والدراية المتطورة

«مجزرة في الجزائر» ـ لمحمود صبري

باصول فنه ولكنه يحتاج من ناحية اخرى ، الى قدر من الثقافة العلمية والانسانية لترفع من تكنيكه وتؤنسنه ، كلا ، في تعاون عضوي ووظيفي حي للموضوع والمضمون .

بين موضوع صبري والشيخلي وتكنيك فائق حسن ، يعيش الرواد معرضهم . وبين واقعية صبري والشيخلي والوان وروعة شكل فائق حسن ينطلق فن الرواد جسورا ، متعاونا باخاء مع فن خير من في الجماعات الاخرى ، في سبيل فن عراقي عربي مستقل الشخصية ، واضح السمات.

يأتي اسماعيل الشيخلي « بحاملات الروبة » و « بائعات الحليب » فلا نملك الا ان نصيخ السمع لاصواته التي تهدر عبر الالوان والفرشة ، بكل رشاقة وحب. ولكننا اذ ندقق في العجان والتسوية اللونية ، قد لا نجد انفسنا مرتاحين كل الراحة . ثمة ما ينغص علينا استمتاعنا باللوحتين وثمة ما يجهض ، او يحاول ان يجهض ، في صدرنا الفرحة . انه التعجل لا اكثر . لقد تعجل الشيخلي في « الاستيج » وتعجل في التلوين ، فاتت النتيجة موضوعا طيبا ، ومضمونا سليما ، ولكن بشكل غير متكامل . على اننا سنرتاح راحتنا التي نريد ، حين نتسمر امام « ملايات » للشيخلي. فهنا وفي « دراسات » و « في الجادرية » وفي « حريق » ، ينطلق الشيخلي . هنا تنبسط الالوان حارة ، دفيقة ، مشرقة ، وهنا تجد شمس الشيخلي تشرق ، ابدا رغم الظلاميات الكثر

ولو ان زوجته سوزان كانت جادة مثله ، لاتى الحصيل الشيخلي ، عائلة ، رائعا لكن سوزان لم تكن ، كما كانت في اعمالها في العام المنصرم ، مثابرة دؤوبة . فـ « سوق الاقمشة » و « صفارون » و « سوق الشورجة » لسوزان في عامنا الماضي كانت جميعا ، معرضا لتكاتف الموضوع والمضمون في اطار شكل جيد مبدع ، كما درسناها . على ان سوزان تنتصب في لوحة واحدة هي « جاي العصر » ، فتقدم لنا عيشا طيبا لواقعنا ، باسلوبها الخاص ، وتقدم لنا رصيدا ، لا عبرة بكميته ، غنيا بالنوعية السليمة . هنا تتعانق الوان ومضمون وموضوع سوزان ، سوية، لتكون آخر الامر ، اغنية محبة ، وزغردة سلام . وليس لنا ان نذكر « قروبات » ولا « سوق الفواكه » ولا « منظر من الجادريه » ، فكل هاته اللوحات كانت ، للاسف حصيلة تأثر بالغ بفن الشيخلي اسماعيل،وباسلوبه وبواقعيته . ومن الجدير بالذكر ان سوزان هذه اجنبية ، الا انها تبدع ، احيانا ، حين تستوعب واقعنا ، كانسانة ، فتأتينا بما نريد وننتظر من اجادة .

وقد لا نجد في بعض مواضيع الفنان المجيد فائق حسن الا شعبية مجتلبة او مصنوعة ، الا اننا ، مرتاحون ، اخر الامر ، للكسب الذي يكسبه فننا العربي المعاصر بفائق وصبري وامثالهما . ان « عصرية في الغابة » و « اهل الصحراء » و « شهر رمضان » امثلة للشعبية الموضوعية المصنوعة . ولكن لوحات اخرى لفائق تنتصب لتقدم لنا شيئا جادا .«ففي الانتظار » و « في السوق » و « الارض الطيبة » ، نجد فنا .. وفنا سليما يرفع الرأس ، كما يقولون . ان تكنيك فائق الجيد يطغى على موضوعه ومضمونه فيكسبه فخامة وروعة فريدة الا انه قد يخنقه احيانا ، فيعطيه ديكورا يفتقد الحياة ونسغ الحياة ، ليقف في ذلك مع افلام هوليود العظيمة القيمة الفنية والديكور والفقيرة الموضوع والمضمون .ان خشيتنا هذه على فن فائق ومستقبله تتنامى حين نراه يهرب في « لوحاته الطبيعية » ـ ان صح التعبير ، وهي ما يحاول بها التملص من « ا » ، وعناق التربة بشكل سلبي ذاتي .. بشكل « شكلي » . وهذا ما تقدمه لوحات « بعد المطر » و « ساحل الاطلسي » و « غروب » و « حافة الغابة » و « الوادي الاخضر » و « الصباح » و « غابة الصنوبر » . وثمة ملاحظة ان اكثر لوحات فائق الطبيعة ترتاح ، مائية ، بينما لا ترتاح لوحاته الاجتماعية الا زيتية . الا ان تكنيكه يبقى هو هو زيتيا ام مائيا . وفي رأيي ، ان لوحات فائق لهذا العام معطاء اكثر من لوحاته للعام السابق . وفي هذا مصداق تطور للفنان فائق ، وهو شرف له ولنا ولفننا المعاصر .

على ان « السماك الفقير » وهي لوحة فريدة لفائق ، تقدم لنا تعجلا ، يشوب تكنيك فائق لاول مرة . ومع ان فائق لا يرتاح الى الرمز كثيرا ، الا ان لوحته « الامل » وهي لوحة تحتاجنا دراسة مدققة ـ في عدد قادم ـ ،

تقدم فائقا جديدا ، فائقا فيه تفتح لعمق ثقافي يبشر بخير كبير ، ويدفعنا في الوقت ذاته ، للايمان بان مستقبل فائق هو في التفتح الثقافي الاجتماعي مع التقنية الفردية التي يتميز بها . والاسطورة مع الرمز تعانق فائقا ثانية ، في لوحة « ليلة القدر » ، وقد عاونت الوان فائق المنتقاة جيدا ، والنسوية الفاخرة ، والتوزيع اللوني الرشيق ، في اكساب الاسطورة بعدا شموليا رهيفا .

ويسلمنا خالد القصاب ، عاجلا ، الى فناننا الواقعي المجيد محمود صبري والذي تأملناه ، فاحصين ، في دراستنا السابقة في العام الماضي . ولن يترشح في ذهننا للقصاب سوى لوحة واحدة هي « اربيل » . «فأربيله» هذه كانت لوحة طيبة ، جال فيها تكنيكه جولة موفقة ، واستطاعت ان تريحنا من تكلفه وعدم انطلاقه مع التشويه في لوحته من « الريف » .

يطل علينا الفنان محمود صبري واقعيا تعبيريا مجيدا ، كما عهدناه في عموم لوحاته واسكيجاته ، طيلة ما مر من السنين . وجدية والتزام صبري نموذج يصح ان يحتذي به . ان الدروس التي يلقيها التزام صبري ، عبر لوحاته ومواضيعه ، بليغة ، بدرجة مذهلة ، وبدرجة لا يمكن لاخوته الفنانين الاخرين الا ان يفيدوا ، ومن اخطائها ان كان فيها اخطاء .

والفنائية التي لدى صبري والشيخلي وفائق فريدة حقا . الا ان الانسانية حين تعانق الفنائية في موضوع واقعي ، ومضمون واقعي سليم، تكون حصيلة ذلك كله ، عملا فنيا رائعا ، وعملا لا يمكن الا الفخر به ، والاعتزاز بمعطياته . واول ما يرفع صبري وفنه هو لوحتاه « مجزرة في الجزائر » ـ الاولى تخطيط ، والثانية زيتية . ففي « مجزرة في الجزائر » تتجلى كل المحبة التي يكنها انساننا العربي للحرية والاستقلال والوجود المؤنسن . وفي هاته اللوحة وتضاعيفها سمفونية رائعة ، من نوع الذي شهدنا لصبري في « جحيم دانتي » في العام الماضي . وفي رأيي ، ان لوحات مثل « جحيم دانتي » و « كانون » و « ومجزرة في الجزائر » ، يجب ان يحتضنها «المتحف الوطني» ، الذي لا زلنا نعيشه خيالا ، لا واقعا .

ويبدو على صبري انه فنان جداري رائع ، فمجزرة في الجزائر وهي لوحة ضخمة (قياس ٣ متر طولا ١،٨٠ عرضا) ، كان ممكنا ان ترتاح على جدار، وعلى جدار متحفنا الوطني ، على وجه الدقة . وفي هذا كسب جديد لفناننا المثقف صبري ..

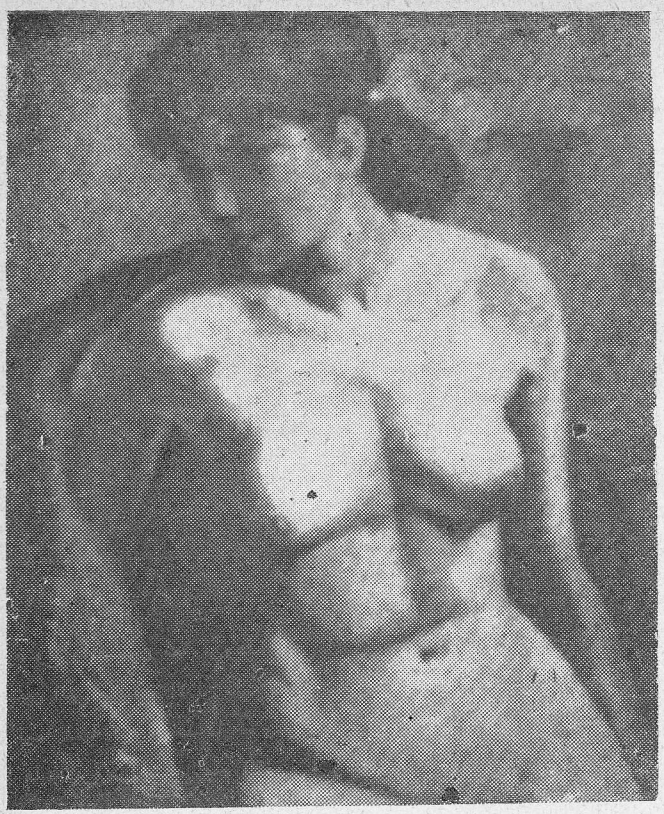

على ان ثمة فارقا بين تخطيط « مجزرة في الجزائر » ولوحتها الزيتية، وهي الاجزاء المحذوفة ، على ما يظهر ، من اللوحة الزيتية ، والمثبتة في التخطيط ، وذلك مثل منظر رأس مجاهد ومجاهدة رفعا على حراب المجرمين الفرنسيين ، ومنظر السلام الذي اجهض واعدم بعد ان ذبحت حمامته .

ومع ذلك فان روح المأساة الانسانية تحتضن اللوحة الزيتية بكامل ابعادها، ومنطلقاتها . فالضحايا على المشانق وهم يرفعون راية الثورة ، والتعذيب البربري الذي يقوم به غستابو فرنسا ومظليوها تقتيلا للآمنين العزل من شعبنا العربي في الجزائر ، والسير الابي الحرون للمأساة ، وابطالها ، من شعبنا ، هناك ، الى الامام ، والاصرار في هذا السير ، والايمان المرتسم على الوجوه السمر ، وراية السلم ، والشمس والاطفال .. كل ذلك قد اكسب اللوحة ابعادا شمولية خصبة ، ومنطلقات انسانية شفيفة قدر ما هي رهيفة وواقعية فالثورة الجزائرية نموذج للثورة الانسانية ، من الاعماق، ومن الجذور ، وعلى يد الشعب الواعي ، الخالق ، الفاعل ، في سبيل وجود مشرق وواقع فاضل ، نبيل . والثورة الجزائرية كما عكسها اللوحة هنا انطلاقة ثورية ، تقدمية ، بحد ذاتها ، وانفتالة صداحة بالحياة . ولست اريد بذلك ان اقول انها كانت قمة اعمال صبري فحسب ، بل اني اود القول انها كانت قمة اعمال الرواد ، ولربما ، الفنانين العراقيين جميعا ، لهذا العام .

ان صبري هنا ، يستحق التهنئة والشكر . فلقد اتى بجديد . لقد اتى بشيء نرتاح اليه ونؤمن به ، ونقتدي ، كلا ، بمعطياته . ان صبري هنا انسان فنان باتم ابعاد ذلك .

ومع ان صبري يموسق كل لوحاته بلحون التعبيرية ، ومع انه يعطي نظره ، ويقيم واقعه ، عبر لوحاته ، الا انه لا يهتم بالتكنيك قدر اهتمامه

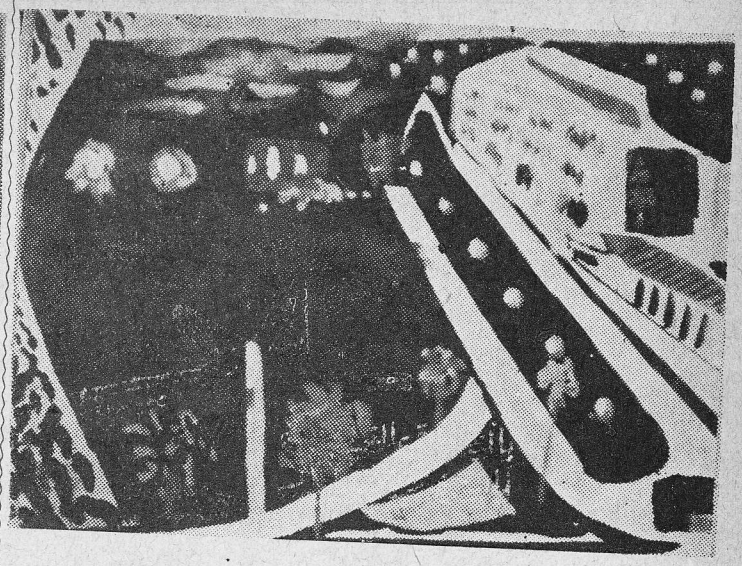

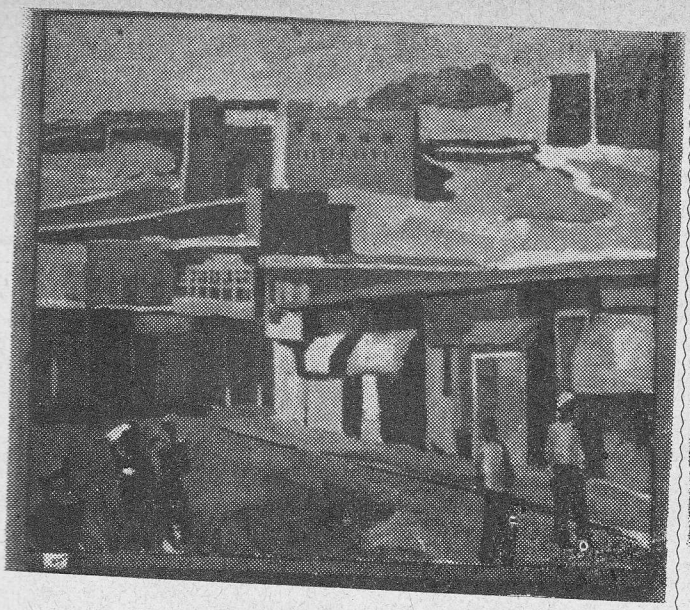

بالموضوع والمضمون معا . وهذا رأيي الذي تصدقه اعمال صبري طيلة السنين التي مرت . الا ان ذلك لا يغض من قيمة صبري الفنية ، فصبري هو قيمة فنية كبيرة بحد ذاته ، وهو نموذج للفنان الواقعي العربي الانسان، كما قلت في دراستي للعام الماضي ، وكما اكرر ، مستندا الى اعماله الان .

ثمة شيء يفيد منه صبري كثيرا هو البساطة والعفوية والتشويه. كل فناننا يحاولون الافادة من الفنائية والبساطة والرموز والاساطير ، وكلهم يحاولون الشعبية موضوعا ومضمونا ، الا ان شخصية صبري تتميز بالتشويه الفني في لوحاته ، فهو ، كبوتشيلي ، يتعمد اطالة وتضخيم اجزاء معينة من العمل الفني ، او المضمون ، لابراز صفة معينة ، او للتأكيد على قضية معنية . ولو اتيح لصبري ان يطعم فنه بتكنيك واقعيي المكسيك كرفييرا مثلا ، لاستطاع ان يأتي بذخيرة لن ينساها فننا العربي الحديث البتة .

على ان ذلك لن يعفي صبري من كسله . فبعض لوحاته معادة ، وهذا يعني انه يجتر . ولن يشفع لذلك عمله ، فالفن الانسان الذي نذر نفسه لاجله يتطلبه ان يكون جادا حقا حتى في الكمية ، بله النوعية . والارهاق واليأس والتعب (وكلها ملامح رومانسية ـ واقعية معا) تلون ابطال ومرسومات صبري الاجتماعية ، الا ان ثمة شيئا يظلل كل هاته الملامح ، هو الايمان . فالايمان يتجلى في النظرات ، وفي العيون ... في شكل تحديقة واعية ، مثابرة ، عاقلة . الا ان صبري يغرق في الوان قاتمة، كئيبة، فلا يعطينا التكامل الفني في اسمى درجاته . وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، ان صبري ينتهي حيث يلح في كآبة الوانه ، بالعكس من ذلك ، انه ينطلق من هناك الى حيث اشراقة رصينة ستأتي بتشكيلات واقعية طيبة جدا في الاعوام القادمة .

وفنانونا الاربعة الذي تبقوا لا يقدمون العطاء المنتظر ، موضوعا ومضمونا وتكنيكا ، بالقدر الذي نريد . ومع ذلك فزيد صالح وهو « فنان اختص بتصوير الخيول » كما درسنا في العالم الماضي ، يأتي بجديد حين يقدم لنا « بائعة البيض » و « بائعة الدجاج » و « عمال انابيب المجاري »، انه في الحقيقة يخطو خطوة جبارة نحو ما يجب ان يسوقه اليه منطقة الواقعي . وتكنيكه مسماح لدرجة نستطيع ان نقول معها انه يتطور سراعا وبشكل بهج .

اما عادل صالح فتصميمه « لكنيسة » شيء فاخر حقا ، ومثل ذلك « نجف » الفنان قحطان حسن فهمي التي افاد فيها من الرمز والاسطورة كثيرا ، فقدم لنا تعاونية رائعة للموضوع والمضمون . ويأتي عيسى حنا اخيرا ليقدم لنا « دراسة » وهي لوحة تسجل له دأبا كبيرا ، وجها مثابرا. ولن يحتاج هؤلاء الفنانون الثلاثة سوى الامعان في التجربة، والتأني والعناية بالتكنيك .

وفي معرض الصور الفوتوغرافية يجيد ناظم رمزي في التقاطته الثرة الابعاد حقا في « ضابط الايقاع » و « الطفولة في راوة » و « رقص الحصاد » . ولعله سيفيد من الوقت والخبرة في قابل ايامه ، فيقدم لنا صورة رائدة في هذا الميدان الذي تتعاون فيه الصناعة والفن معا.

وختاما ، اود ان اقول ، ان الرواد قد تعاطوا ، كلا وافراد ، مع مجتمعهم الصغير والكبير في وطن العروبة ، وبشكل يختلف باختلاف ثقافة كل منهم ، وايمانهم بالقضية . الا ان الشيء الاهم من ذلك هو كونهم قد تطوروا موضوعا ومضمونا ، فكان معرضهم ، لهذا العام ، خطوة لا بد منها نحو تكاملهم الفني الرحيب ، لا بد من اجل ذلك ان تتعاون انسانية وواقعية صبري ، وغنائية الشيخلي ، وتكنيك فائق لتقدم ، معا ، انطلاقة فنية معطاء سيكون لها اثرها وسهمها في بنائنا الفني الحديث .

بغداد **جليل كمال الدين**

صدر حديثا

لمن يموت الاطفال

للاستاذ محمد سعيد الجنيدي

اول دراسة علمية عن الجزائر تصدر في الاردن

تطلب من المكتبات في عمان ومن المؤلف